إسهامات النُّحاة المغاربة في التَّأصيل للدَّرس النّحوي العربي

أ.د/ محمد يزيد سالم
جامعة باتنة1-باتنة(الجزائر)
yazidsalem915@yahoo.com

ملخص :

يعد هذا الموضوع نافذة على مجال خصب خاض فيه المغاربة وأبدعوا ، وكانت لهم فيه إسهاماتهم الجلية . فقد بلغت الدراسات النحوية لديهم مرحلة متقدمة من النضج ، إذ تجاوز النحاة في مباحثهم ما درجوا على العناية به من إيضاح قواعد النحو في أيسر مآخذها ، وتقريب شواهدها ، و تفسير معانيها إلى اقتحام قضايا الجدل النحوي . وبدأ الدرس النحوي عند المغاربة يتَّخذ مسارا جديدا فكان لهم فضل الخروج على ما أُلف عند نحاة المشرق من آراء ، غير أنَّ أظهر ما في نحو المغاربة ، هو منهجهم وطريقتهم في التعامل مع كثير من القضايا النَّحويَّة ، التي ظلَّت ردحا من الزَّمن على جمودها والتَّبعية و التَّقليد في الأخذ بها . وقد تناول هذا البحث جانبا من هذا الإبداع الذي ظهر عند النحاة المغاربة، و ليبين علو كعبهم في الصناعة النحوية .

الكلمات المفتاحية : المدرسة ؛ المغاربة ؛ النَّحو ؛ الخصائص ؛ البصرة ؛ الكوفة ؛ الأندلس .

Abstract:

This subject is a window on a fertile area in where the Moroccans scholars gave the addition and the creation, and they had their obvious contributions. The grammatical studies have reached an advanced stage of maturation. The grammarians have surpassed what they have been taught which is clarifying the grammars in its simpliest Aspects and rounding its evidences and explain its meanings to bring them closer to understand, to break into grammatical argumentation.

The grammatical lesson started to take a new path with the Moroccans, and they had the honor of going out from the usual views among the east's grammarians. However the clearest appearance about the Moroccans was their approach and their way of dealing with many grammatical issues, which remained for a long time a sign of stagnation and subordination in its taken. This article came to treat some of the creativity side that is shown in the Moroccan grammarians and to show their high heels in the grammatical industry .

Key words : *school, Moroccans, grammar, Characteristics, Basra, Kufa, Andalus.*

مقدمة :

يعدُّ النَّحو العربي من أهم العلوم الإسلاميَّة ، و أكثرها تعبيرًا عن قدرة النُّحاة المعرفيَّة و منهجهم في النَّظر و البحث العلمين. إذ له الأسبقيَّة ، قبل غيره ، في استكشاف أسرار العربية ، و معالجة النُّصوص الشرعيَّة بغية توظيفها و تنزيلها على الواقع العملي ، لذا كان النَّحو أوَّل ما تجنح إلى تحصيله الهمم العاليَّة و أحق ما وجب صرف الجهود لدركه و الأخذ بعنانه ، لأنَّه أصل العلوم كلها ، و سند كل المعارف في تحققها ؛ و من ثمَّة اعتبرت معالجته مدخلا ضروريًا لقراءة العلوم الإسلامية المختلفة و معرفة طرائقها في التَّحليل و الدراسة .

فبعد أن سبق غيره من العلوم في الوجود ، و بعد أن قُيضت له مكانة مركزيَّة رتبت الأمور العلميَّة بما يناسبه ، و يوافقه ، لاعتماد العلوم عليه ، و حاجتها إليه ؛ كونه العلم الذي يصون اللسان عن االزَّلل ، كما يمكنه من إجادة لغة الدين والحضارة و العلم .

و لذلك فقد اشتد التنافس بين العلماء لإحرازه .يحدوهم إلى ذلك كله أسباب متعددة منها فضله على غيره من العلوم، و تقدم أصحابه على غيرهم من العلماء ، وريادته في الإمكانات التي يقدمها لدارسيه لأنَّه المدخل إلى دراسة العلوم الدينية الأولى التي قامت لخدمة القرآن .

1. تدرج النَّحو بعد النشأة : ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ البصرة وضعت أولى غراس علم النَّحو ، و تعهدته حتى استقام عوده ، و نما أصلا و فرعا . و تعهدته بعد انتهاء مرحلة الوضع المبكرة بالعناية و الرِّعاية قرابة قرن من الزمان كانت فيه الكوفة منصرفة عنه إلى روايَّة الأشعار و الأخبار و الملح و النَّوادر ، ثمَّ تكاتف البصريون و الكوفيون على استكمال قواعده مع التنافس في ذلك تنافسًا لم يلبث أن أصبح شديدا ، و استمر ذلك قرن آخر خرج بعدها النَّحو تامَّ الأصول كامل العناصر، و انتهى الاجتهاد فيه تقريبا ، وقد ازدادت حدَّة المنافسة العلميَّة بين البلدين حتى بلغت حدَّ التَّعصب في كثير من الأحيان ، ساعد على ذلك و نمَّاه ما كان سائدا عند أهلهما من التَّعصب السياسي ، يقول أحمد أمين : « بدأ الخلاف هادئا بين الرؤاسي في الكوفة و الخليل في البصرة، ثم

اشتدَّ بين الكسائي في الكوفة و سيبويه في البصرة ، و صار لكل مدرسة علم تنحاز إليه كل فرقة ، و يظهر أنَّ العصبية العلميَّة بين المدرستين كانت مؤسسة على العصبية السياسية التي ظهرت بين البلدين »[1] .

ولما كان النُّحاة الكوفيون الذين أسَّسوا النَّحو الكوفي و نشأ على أيديهم و تطور قد نزلوا بغداد و أقاموا فيها يدرسون و يدرِّسون . لم تعرف بغداد منذ نشأتها غير هذا النَّحو الكوفي الذي ظلَّ مسيطرا على الدرس النَّحوي في بغداد حتى نزل بها المبرد واستطاع بما له من ذكاء و تفوُّق في الجدل و المناقشة و بما يحفظه عن النحو البصري الأصيل ، وبكتاب سيبويه الذي ضمَّ النَّحو العربي الذي طوَّره البصريون و نمَّوه ، وبقدوم المبرد عرفت بغداد نحوا جديدا و منهج درس نحوي يختلف عمَّا عرفوه و ألفوه فانحاز عدد كبير منهم إلى المبرد و اطَّرحوا النَّحو الكوفي وكتبه واستبدلوا به النَّحو البصري ، و ظلَّ فريق منهم ملتزما بما نشأ عليه من النَّحو الكوفي ، ووُجد فريق ثالث بقي يأخذ عن شيخه الكوفي النَّحوي الذي عرفه ، مع حضوره مجلس المبرد ليسمع النَّحو البصري و ليناقش و يقارن و يختار ، فنشأ بذلك المذهب البغدادي .

وبعد ذلك تدارس علماء بغداد آراء المدرستين المتنافستين ـ البصرة و الكوفة ـ فوازنوا واستظهروا و خطأوا و رجحوا ، و نتج عن ذلك ظهور المدرسة البغدادية ، وهي مزيج بين المذهبين البصري و الكوفي حيث " كانت بغداد حاضرة الخلافة العباسية هي السوق التي كان يروج فيها العلم و الأدب ، فكان يرتحل إليها العلماء من الأقطار كلُّ يحمل إليها طابع بلده الخاص "[2] .

وقد أرَّخ أبو الطيب اللغوي لهذا المذهب ووصفه بإيجاز بقوله : « فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريبا ، و غلب أهل الكوفة على بغداد ، وحدَّثوا الملوك فقدموهم ورغب النَّاس في الرِّوايات الشَّاذة و تفاخروا بالنَّوادر وتباهوا بالتَّرخيصات و تركوا الأصول و اعتمدوا على الفروع و اختلط العلم »[3] .

وشرَّقت شهرة هذه الأمصار و غرَّبت ، وكانت تستقبل كثيرا من الدَّارسين الوافدين عليها من الآفاق البعيدة ، فقد كان الدَّارسون الأندلسيون، بوجه خاص بعد أن يستوفوا متطلبات الدرس الأولى بتعلم مبادئ العربية ودراسة النُّصوص والأشعار يتجهون بأبصارهم نحو المشرق العربي لطلب المزيد من العلم ، و يشرئبُّون إلى العائدين منهم يحملون معهم علم المشارقة أخبارهم و مصنفاتهم و كان لعلوم اللغة العربية

ولعلم النحو على وجه الخصوص نصيب كبير من اهتمام الأندلسيين ، كما هو الحال عند المشارقة ، وذلك لصلته الوثيقة بمصدري التشريع الإسلامي ، القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف .

وقد بلغت الدراسات النَّحويَّة في الأندلس مرحلة متقدمة من النضج منذ أواسط القرن الرابع الهجري أو قبل ذلك بيسير إذ تجاوز النُّحاة في مباحثهم ما درجوا على العناية بم من إيضاح القواعد النَّحوية في أيسر مآخذها ، وتقريب شواهدها ،وتفسير معانيها إلى اقتحام قضايا الجدل النَّحوي ، فما إن عاد محمد بن يحي الربَّاحي من رحلته إلى المشرق يحمل كتاب سيبويه رواية عن النحوي المصري النابه أبي جعفر النَّحاس حتى بدأ الدَّرس النَّحوي ، يتخذ مسارا جديدا يقوم على التَّحليل و التعليل والاستنباط يشيد بذلك الزُّبيدي في طبقاته فيقول : «لم يكن عند مؤدبي العربية كبير علم بالعربية حتى ورد محمد بن يحي عليهم ، و ذلك أنَّ المؤدبين إنَّما كانوا يعانون إقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم و العوامل و ما شاكلها ، و تقريب المعاني لهم في ذلك ، و لم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية و غوامضها، والاعتلال لمسائلها ... حتى نهج لهم سبيل النَّظر، وأعلمهم بما عليه أهل هذا الشأن في الشرق من استقصاء الفن بوجوهه و استيفائه على حدوده »[4].

وعن عناية الأندلسيين بالنَّحو يحدثنا صاحب نفح الطيب قائلاً : «... و علم النَّحو عندهم في نهاية الطبقة ، حتى أنَّهم في هذا العصر ـ فيه كأصحاب عصر ـ الخليل وسيبويه ، لا يزداد مع هرم الزمان إلاَّ جدَّة ، و هم كثيرو البحث فيه و حفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ، و كل عالم في أيّ علم لا يكون متمكِّنًا من علم النَّحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق للتَّميز ، و لا سالم من الإزدراء »[5]

على أنَّ الأندلسيين اهتموا بادئ الأمر بالنَّحو الكوفي و قدموه على النَّحو البصري وذلك لاعتبارات كثيرة نذكر منها ما يلي:

1 ـ لما جاء الأندلسيون لطلب النَّحو من المشارقة كان النَّحو الكوفي وقتذاك في بداياته ، وكانت الآراء النَّحوية الكوفيَّة تتسم بالبساطة و السهولة ، و البعد عن التكلف والتَّعقيد،وفيها ما يتناسب و مستواهم العلمي لذلك كانت المدرسة الكوفيَّة و آراؤها محط اهتمام الأندلسيين المبتدئين في هذا العلم ؛ و ذلك لأنَّ الدارس لعلم من العلوم

بطبيعة الحال يتدرج من السهل إلى الصعب الأكثر دقة و إحكاما طائعا أنَّه من أولى خطواته لتلقي هذا العلم .

2 ـ طبيعة الكتب الكوفيَّة التي درسها الأندلسيون ، و بخاصة عند عودة جودي بن عثمان من المشرق ، بعد أن تتلمذ للكسائي و الفراء ، حيث كان هو أول من أدخل كتب الكوفيين إلى الأندلس ، و أوَّل من صنف في النَّحو على مذهبهم ، وظل يُدرس النَّحو الكوفي لطلابه حتى توفي سنة ثمان و تسعين و مائة ، و بعده ظهر مفرج بن مالك الذي وضع شرحا على كتاب الكسائي ـ وهو مختصر في النَّحو ـ ، و بعده جاء ابن خاطب المكفوف الذي وضع كتابا في النَّحو على مذهب الكوفيين [6]، وبذلك فقد استحدث الأندلسيون في النَّحو مذهبًا آخر إلى جانب مذاهب البصريين و الكوفيين و البغداديين ،عرف فيما بعد بمذهب الأندلسيين أو مدرسة الأندلس النَّحويَّة ، و كانت دعامة هذا المذهب الجديد أو المدرسة الجديدة الآراء النَّحوية التي أبداها علماؤهم في بعض المسائل و الفروع ، و هي منتشرة في كتب النَّحو وفي المباحث المرتبطة بها .

و بعدما تأصلت مسائل مذهبهم وذاعت قواعده و كثرت فروعه وامتدت حياته طويلا، شرع المشارقة في أخذه عن علمائهم و لا سيما من أولئك الذين نزحوا إلى المشرق للحج أو للإقامة و معهم مؤلفاتهم التي درسوها في مساجد الشرق و مدارسه كابن مالك و غيره.

و لما قويت شوكة الأندلسيين في النحو العربي ، وجدوا في أنفسهم القدرة على تجاوز النَّحو الكوفي المختصر إلى النَّحو الآخر وهو النَّحو البصري بقياساته و أحكامه الدقيقة ؛ ليتخلَّصوا من الفوضى التي يوقعها فيهم النَّحو الكوفي باعتماده على قاعدة بمجرد سماع مثال واحد فقط ، أو لبيت شعري مجهول القائل ؛ لذلك وجه علماء الأندلس جهودهم نحو البصرة وعلمائها فأخذوا النَّحو البصري الذي طُبع به نحوهم فيما بعد [7] . وممَّا زاد النَّحو الكوفي تضعيفا من قبل الأندلسيين دخول كتاب سيبويه ، لأنَّه كتاب أوجد الضالة التي طالما بحث عنها النحاة الأندلسيون ، و قد بلغ الشغف بالكتاب مبلغه" حتى كان الناس يتساءلون : هل يقرأ كتاب سيبويه فإن قيل لا يقولون : لا يعرف شيء" [8].

و هكذا نرى أنَّ دراسة النَّحو في بلاد الأندلس و إن بدأت على المذهب الكوفي ، وتأخرت عنها على المذهب البصري بنحو قرن من الزَّمان . إلاَّ أنَّه لم يكد القرن الرابع الهجري

ينتصف حتى وجدنا المذهبين يسيران جنبا إلى جنب ، حيث عكف بعض العلماء على دراسة النحو الكوفي ، و عكف آخرون على دراسة النحو البصري ، بينما عكف فريق ثالث على الجمع بين المذهبين، ولا يكاد يبزغ فجر القرن الخامس ، حتى وجدنا من علماء الأندلس من يأخذ بالمذهب البغدادي ، و ينتهج منهجه في الاختيار من آراء البصريين والكوفيين ؛ و لعلَّ أشهر هؤلاء العلماء ابن سيده الضرير صاحب (المخصص)، والمحكم [9].

صفوة القول : إنّ حديثنا عن النَّحو في كل من البصرة و الكوفة و بغداد و الأندلس ليس من أجل التَّأريخ لهذه المدارس و المذاهب، و إنَّما للتَّمثلات الفكريَّة المذهبيَّة التي طبعت النحو في بلاد المغرب.

2 ـ بواكير الدرس النَّحوي عند المغاربة : جرى الفتح العربي لبلاد المغرب العربي على غير مجراه كما في سائر الأقطار ، فإذا كانت الأمور قد استتبت للعرب بعد مدة وجيزة منذ أن حَلُّوا في تلك الأقطار ، فقد عانوا من البرابرة ـ سكان المغرب ـ عشرات السنين، قبل أن تستقرَّ لهم الأحوال في عهد موسى بن نصير ، و ذلك لأنَّ البرابرة أهل قبائل وعصبيات يصعب جمعهم على رأي واحد، و لذلك كثر تمردهم على الدولة العربية وخروجهم عليها في كل وقت.

و لأجل هذا لم تفلح في إخضاعهم حملة ابن أبي سَرح عليهم ، فعادوا بعد ذلك إلى الثورة و العصيان و مناوأة المسلمين و محاربتهم ، و ما إن يقضي المسلمون على تمرد منهم حتى يعودوا إلى آخر ، و قد اختلط بهؤلاء البرابرة العربُ الفاتحون من قبائل عدنان و قحطان ، و من عرب الشام و الغسَّانيين و غيرهم ، و من عرب العراق ، وانتشر هؤلاء العرب في كل الأمصار المغاربية مع قلَّة عددهم ، و لم يكد يخلو منهم مصر ولا جيل ، فغلبت العجمة على اللِّسان العربي الذي كان لهم ، و صارت لهم لغة أخرى ممتزجة ، و العجمة فيها أغلب ـ لما ذكرناه ـ فهي عن اللِّسان الأوَّل أبعد .

و على عادة العرب في كل بلد يفتحونه عملوا على نشر الدين الإسلامي و نشر لغته العربية ، فأحدثوا نهضة علميَّة، قوامها المساجد و المدارس المختلفة ، و رَغَّبوا العلماء من خارج المغرب العربي في القدوم إليه و الإقامة فيه، حتى أنَّه ظهر في بلاد المغرب علماء ضارعوا علماء المشرق.

لكن الإشكاليَّة التي أدركها المغاربة هي أنَّ نطقهم للعربية لم يكن سليما يرقى إلى مستوى لغة القرآن و الحديث الشريف ، ممَّا توجب عليهم الأخذ بالنَّحو الذي سبق أن أرسى قواعده نحاة البصرة و الكوفة.

ولم تكن ظاهرة اللَّحن التي تفشت بين أهل المغرب السَّبب الوحيد في جعل المغاربة يرغبون في دراسة النَّحو العربي و فهمه ثمَّ البحث و التَّصنيف فيه ، و إنَّما أرادوه لمآرب أخرى ، و هي أنَّهم كانوا في حاجة ماسَّة إليه بهدف البحث في االعلوم الدِّينيَّة التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالنَّحو و اللُّغة أيضا ، وقد نتج عن هذا أنَّ أكثر النُّحاة تفرقوا في علوم كثيرة غير النَّحو ، فهناك نحاة برزوا في التفسير و بعضهم في الحديث و بعضهم الآخر في الفقه و غيره ؛ لأنَّ النَّحوي كان " يعتمد في دراسته النَّحوية النُّصوص اللُّغويَّة و أهمها القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف و غيرهما ومن هذا التَّداخل في عمل كل من النُّحاة و المشتغلين بالعلوم الإسلامية نتج التَّأثر و التَّأثير بين النَّحو و تلك العلوم في طرق التَّفكير، و مناهج البحث ، مناهج التَّأليف والمصطلحات و الأساليب المتَّبعة في مناقشة تلك العلوم " [10].

و عليه فقد ارتبط الدَّرس النَّحوي عند المغاربة بنشر الإسلام و تعاليمه ، و هو أمر يوحي بأنَّ النَّحو ظلَّ في خدمة القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة ومازال كذلك ، فقد " نشأ على ضفاف شط العرب ، و ربته البصرة وليدا، و غذته الكوفة بلبانها ، ورعته دار السَّلام بين الرُّصافة و الكرخ " [11].

و قد دخل النَّحو العربي بلاد المغرب العربي في الوقت الذي دخل فيه بلاد الأندلس، أي في القرن الثاني الهجري، و عندما تمَّ إنشاء جامع القرويين بفاس الذي كان من مراكز الدِّراسات الإسلاميَّة العربيَّة [12].

كما أنَّ اهتمام النُّحاة المغاربة بالنَّحو العربي كان اهتماما بالغا ما جعلهم يتبوأون المراتب الأولى ، إلى جانب العلماء الكبار في المشرق العربي و هذا ما جعلهم أيضا يؤسِّسون مدرسة نحوية يتميَّزون فيها بآرائهم ، التي خالفوا فيها من سبقهم ،و قد استفتحت أمامهم مغالق اللغة،ولم يكتفوا بمجرد التَّأثر و التَّشبُّع باللُّغة العربية فقط، و لا بمجرَّد الانتصاب للإقراء و التدريس و التَّفرغ للرِّواية ـ على أهميته ـ ، فحسب ، ولكنَّهم انتقلوا إلى المشاركة و الإسهام في إثراء علوم العربية عن طريق الغوص في استكشاف كنه و أداة التَّعبير تلك لغةً و نحوا ، و من هنا فقد وجدنا أنفسنا أمام أعداد

كبيرة من أبناء المغرب العربي ينقبون في علوم العربية ، فيستخرجون مادة غزيرة في اللُّغة و النَّحو ، أسهمت و لا ريب في إرساء و تقنين قواعد اللغة و النَّحو التي حمل مدرستا البصرة و الكوفة مشعلها في المشرق العربي ، كما هو معروف تاريخيًّا .

و بذلك انتشرت دراسة النَّحو في المغرب العربي و سائر المدن ، و أصبح النَّحو فيها يحاكي النحو في بقية الأمصار في عصورها الزاهرة ، وانصرف علماء المشرق إلى ما درسوه و دونوه و حفظوه من كلام العرب بعد أن فسدت السليقة في البادية في أواسط القرن الرابع ، ولم يعد هناك جديد يروونه . و لا عجب أن يصنع المغاربة صنيع هؤلاء المشارقة في اكتفائهم " بما نقلوا من ألسنة و كلام العرب المروي لهم من علماء المشارقة ، والقواعد التي تلقنوها منهم فلم يرتحلوا بعد إلى المشارقة " [13]، بل عكفوا على ما حصلوا عليه و صدقوا العزيمة في تثمير بعض ما عندهم ورأوا أنَّ إنعام النظر و الفكر في المسائل التي بين أيديهم يوحي و يلهم باستكمال بعض ما فات من نقص ، واستدراك بعض ما يُتَنَبَّه إليه من أمورٍ و أحكام . و هكذا بدأ المغاربة يفعلون بعد استغنائهم عن المشارقة واعتمادهم على أنفسهم في دراسة ما بين أيديهم ، و قد أثمرت هذه الدِّراسة وهذا التَّتبع استدراكهم على المشارقة مسائل فاتتهم، ووجدت لهم آراءٌ خاصة بهم كونت عندهم مدرسة عرفت بالمدرسة المغاربية أو ما سماه البعض بمذهب المغاربة ، و قد ظهرت بوادر هذه المدرسة في القرن الخامس الذي يعد بحق فجر النهضة النَّحويَّة في بلاد المغرب .

3 ـ تطور الدَّرس النحوي عند المغاربة : حين بدأ العلماء المغاربة يشتغلون بالدَّرس النحوي كانوا يعتمدون على كتب النُّحاة المشارقة التي عرفوها عن طريق طلبة نحاة المدرستين البصرية و الكوفيَّة ، و لكن إذا عرف أهل بغداد و مصر النَّحو البصري في البداية ، فما حدث للمغاربة هو العكس، فقد عرفوا أولا النَّحو الكوفي قبل أن يعرفوا النَّحو البصري حيث اشتغل علماء المغرب و الأندلس بنحو الكوفيين فترة زمنية دون أن ينتبهوا لنحو غيرهم و عملوا على نشره بفضل نحويّهم الأول جودي بن عثمان ، و أبي الحسن مُفرّج بن مالك النَّحوي الذي قام بشرح كتاب الكسائي في النَّحو[14].

و في كل الأحوال فقد عرف المغاربة علم النَّحو في الوقت الذي عرفه الأندلسيون ، كما اطلعوا على النَّحو الكوفي قبل النَّحو البصري . و قد أتيحت لهم فرصة التَّعرف على

النَّحو البصري الذي عرفوه بالطريقة ذاتها التي عرفو بها النَّحو الكوفي ؛ أي عبر الكتب التي يأخذها الطلبة و العلماء أثناء ترحالهم .

أمَّا النَّحو البغدادي فقد عرفه المغاربة بعد فترة يمكن القول إنَّها طويلة من وصول النَّحو الكوفي و النَّحو البصري ، و لقد سبق ظهوره في المشرق العربي متأثِّرا بآراء نحاة المدرستين الكوفيَّة و البصريَّة ، فقد " كان لعلماء البصرة منهجهم و للكوفيين منهجهم ، فالتقى المنهجان في بغداد ، ليكوِّنا النَّحو العربي في مرحلة من مراحل نضوجه "[15] هذه المرحلة من النضج ، تميَّز بها النَّحو العربي عمَّا كان عليه في السابق من تضارب للآراء بين النَّحويين البصريين و الكوفيين و أنصارهما فالنَّحو البغدادي " كان بريئا منذ أيامه الأولى من التَّعصب فختن ثعلب يقرأ كتاب سيبويه على المبرد ، و نرى ابن كيسان يجلس في حلقة المبرد ، و يسأله عن مسائل نحويَّة بدت له "[16] فلم يكن نحاة المدرسة البغدادية يميلون إلى مدرسة بعينها ، بل كانوا يأخذون من كلا المدرستين ـ البصرية والكوفية ـ و يتخيرون ما يرونه مناسبا و قد" اتبع نحاة بغداد في القرن الرابع الهجري نهجا جديدا في دراستهم و مصنفاتهم النَّحويَّة يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين البصريّة و الكوفيّة جميعا "[17] إذ توفرت لنحاة بغداد ظروف جعلتهم مخيَّرين بين السَّماع و الأخذ عن نحاة الكوفة ، أو البصرة و ما من يقف في وجههم

و على نهج نحاة سار النُّحاة المغاربة ، فقد مزجوا بين آراء المدارس المختلفة و خالطوا " جميع النُّحاة السابقين من بصريين و كوفيين و بغداديين و إذا هم ينتهجون نهج الآخرين من الاختيار من آراء نحاة الكوفة و البصرة و يضيفون إلى ذلك اختيارات من آراء البغداديين ، و خاصَّة أبا علي الفارسي و ابن جني "[18] ، و على هذا الأساس تمكّن نحاة المغرب من الخوض في غمار البحث النَّحوي ، وإيجاد مكانة لهم بين من سبقوهم من المشارقة ، الذين يعدُّون أصحاب هذا العلم .إلاَّ أنَّ النُّحاة المغاربة لم يعتمدوا على الانتقاء من المدارس التي سبقتهم فقط ، و إنَّما كانت لهم آراؤهم المتفرِّدة التي تميَّز بها بعضهم

و في القرن الرابع الهجري اطَّلع المغاربة على النَّحو المصري ، و كان ذلك عن طريق العلماء المشارقة الذين رحلوا إلى الأندلس، حيث حملوا معهم كتاب سيبويه ، و غيره من كتب اللغة و النَّحو ، كما عكف النُّحاة المغاربة على دراسة النَّحو البغدادي ، فاطلعوا عليه كما حدث مع كتاب سيبويه ، و تِلكُم إذا الخطوة التي مهدت الطريق

للمغاربة فأسَّسوا لنحوٍ مغربي ممزوج بالنَّحو الأندلسي عرف باسم النَّحو المغربي الأندلسي انفرد ببعض الآراء و الاجتهادات التي جعلت أبرز المنتمين يتميَّزون عن غيرهم من النُّحاة و يكون لهم أتباع و مريدون و معارضون لآرائهم في الوقت نفسه . و من العلماء المشارقة القادمين إلى بلاد المغرب و بالضبط إلى المغرب الأدنى في الفترة التي بدأ فيها النَّحو يبرز ، أبو علي الحسن البصري (ت 178 هـ) ، و لكن لم يصلنا شيء ممَّا يخصُّه من الآثار اللُّغويَّة و النَّحويَّة سوى اسمه ، فكل ما قيل إنَّه كان من النُّحاة النابهين ، و من كبار المترسِّلين [19].

وهكذا في الوقت الذي بلغ فيه النَّحو العربي مرحلة النُّضج في كل من البصرة والكوفة و مصر و الأندلس و غيرها ، تبدأ رحلة المغاربة مع هذا العلم ، فقد " دخل النُّحاة المغاربة هذا الحقل متأخرين . و يبدو من المراجع المتاحة أنَّها ظهرت في القرن الخامس ، و هي الفترة التي كان فيها النَّحو العربي في المشرق و الأندلس قد تقوَّت مناهجه و تحدَّدت اتجاهاته "[20] . ولما حلَّت النكبة الكبرى بالمسلمين في الأندلس في نهاية القرن التاسع آوت العَدوَة الجنوبية مختلف المقومات الحضاريَّة مع آخر المهاجرين الأندلسيين ، و أصبحت مدينة فاس دار المقام لعدد عديد من الأسر النبيلة ، و في مقدمتها أسرة أبي عبد الله النصرى آخر ملوك بني الأحمر ، و عمَّر أندلسيون آخرون مدن تطوان و الرِّباط و القصبة ، و استوطن بعضهم حتى قمم الجبال و حدود الأودية ، ثمَّ بجاية و تلمسان بالمغرب الأوسط ، و توجد إلى جانبها طرابلس الغرب ، و بوجودهم في مثل هذه الأماكن ازدهرت مختلف العلوم و المعارف و منها النَّحو الذي عرف بدوره الازدهار نتيجة لقدوم الأندلسيين إلى بلاد المغرب فقد انتصبوا للتَّدريس معتمدين في ذلك على كتب النَّحو التي وردت عليهم من المشرق وخاصة كتاب سيبويه الذي أصبحت له مكانة مكينة في نفوس المغاربة و الأندلسيين و الذي ظل معتمدهم في كل الدِّراسات .

و لكن ما حدث أنَ المغاربة في البداية " اكتفوا في تدريسهم للنَّحو ، بإعادة تقديم المادة النَّحويَّة التَّقليديَّة فلم نجد لهم آراء نحويَّة تميِّزهم كما لم نجدهم يعنون بوضع كتب أو شروح في النَّحو ، و يبدو أنَّهم كانوا مدرِّسين و قرَّاء تولَّوا شؤون الخطبة والقضاء . و هذا هو السَّبب في أنَّهم بقوا أسماء منسيَّة لا تذكرها إلاَّ كتب التَّراجم والفهارس " [21] ، حتى و إن كانت هناك جهود من صُنع المغاربة إلاَّ أنَّ ذلك لم يتعدَّ حدود تدريس النَّحو ، و إعادة عرضهم للإنتاج المشرقي و شرحه . صحيح أنَّ اهتمام

المغاربة منصب على مجرد التدريس لهذا العلم ، إلاَّ أنَّ ذلك أثر كبير على ازدهاره ، إذ لعل " من الأسباب التي أدَّت إلى تطور المدرسة المغربية جلوس العلماء للإفتاء في مختلف العلوم ، وكان نصيب النَّحو معتبرا "[22] .

و بغض النَّظر عن الأسباب التي اجتمعت في وضع اللَّبنات الأولى للدَّرس النَّحوي عند المغاربة ، فلا بد أن نعرف أنَّ الأمر لم يبق على حاله حين اكتفى النُّحاة و الأساتذة والعلماء بتعليمه و شرحه للطلبة ، فقد عرف بدوره تطورا بارزا ، و كان ذلك في القرن الخامس و مطلع القرن السادس الهجريين ، أي مع نهاية العهد الفاطمي الذي شهد بداية نشاط الدِّراسات النَّحويَّة ، ممَّا مهد بشكل عام لكل ما أُنتج بعموم المغرب في هذا الحقل ، ثمَّ يليه عهد بني زيري بالمغرب الأدنى الذي عرفت فيه اللُّغويَّة و النَّحويَّة حركة مهمة كغيرها من الدِّراسات التي ازدهرت في هذه الفترة ، مع أنَّ هذا العصر لم يتميَّز كثيرا عن الذي سبقه ؛ لأنَّ أغلب المشتغلين بالنَّحو كانوا من معاصري الدَّولتين الفاطمية و الزيريَّة مع بعض الاختلاف بطبيعة الحال من حيث تزايد عدد العلماء الذين برزوا في العهد الزيري ، فضلا عن تميُّز مؤلفاتهم بنوع من التَّعمق وارتباط أكثرها بالعلوم القرآنية[23] .

و من النُّحاة المغاربة الذين ينتمون إلى فترة الفاطميين اللُّغوي و النَّحوي أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن أبي عاصم اللُّؤلؤي (318هـ) الذي كان من أمهر العلماء في علوم العربية و غريبها.

وممَّن أبرزهم هذا العصر أيضا من علماء اللُّغة و النَّحو،أبو علي الحسن بن علي السنجي المكفوف(ت 342هـ) الذي كان عالما باختلاف العلماء واتفاقهم مع المعرفة الواسعة بالنَّحو و اللُّغة و علوم القرآن الكريم ، وبالإضافة إلى اشتهاره بعلوم العربية ، وقد ترك ابن علي المكفوف كتاب لغوي قام بجمعه بعض طلبته بعنوان(أقيسة الأفعال) [24]، تناول فيه مختلف الأوزان التي ترد في اللُّغة العربية

و منهم أيضا أبو محمد حسين بن محمد التميمي العنبري الداروني المعروف بابن أخت العاهة (ت 343 هـ) الذي كان أحد المنتمين لغويا و نحويًّا إلى مدرسة الكوفة التي كانت تتقاسم زعامة علوم العربية مع مدرسة البصرة[25].

على أنَّ أشهر شخصية لغوية و نحوية في هذه الفترة ، كان بلا مراء العالم اللغوي والنَّحوي ذائع الصيت أبو القاسم إبراهيم بن عثمان المعروف بابن الوزان النَّحوي

(364هـ) و في الحق فإنَّ ابن الوزان لا يعد أحد أئمة اللغة و النَّحو في عصره فحسب بل امتد أثره إلى ما بعد عصره ، قال الزبيدي : " إنَّه انتهى من علم النَّحو في حداثته إلى أن كان أبو محمد عبد اللَّه بن محمد الأموي المكفوف ، إذ وردت عليه مسائل في النَّحو سأله الإجابة عنها ، و أقرَّ له بالتَّقدُّم في ذلك وانتهى من اللغة العربية إلى ما لعله لم يبلغه أحد قبله ، و أمَّا في زمانه فما يشك فيه ، يحفظ كتاب الخليل بن أحمد في (العين) و كتاب أبي عبيدة في (المصنف) ، و كتاب ابن السكيت و غيرها من كتب اللُّغة ، و حفظ قبل ذلك كتاب سيبويه ، ثمَّ كتاب الفراء ، و كان يميل إلى قول أهل البصرة ، مع علمه بقول الكوفيين و كان يفضل المازني في النَّحو و ابن السكيت في اللغة "[26]

يفهم من هذا أنَّ ابن الوزان كان يميل إلى آراء البصريين مع معرفته بآراء الكوفيين ، و لكنَّ بالرَّغم ممَّا بلغه من شهرة إلاَّ أنَّه لم يشتهر بالتَّصنيف ،و قد يكون مرد ذلك لانصرافه للتدريس و الرِّواية . و مهما يكن من أمر ، فابن الوزان أسهم في إثراء الدّرس النحوي عند المغاربة ، ولقد بالغ بعض واصفيه فقال : " إنَّه لو قيل إنَّه أعلم من العالمين اللُّغويين المشهورين ، المبرد، و ثعلب لما جافى الحقيقة في قوله "[27] .

وقد تزايد عدد المشتغلين بالدَّرس النَّحوي بشكل ملحوظ في العصور التاليَّة وخاصة عصر الموحدين الذي بلغ فيه النَّحو مستوى النضج يماثل المستوى الذي بلغته العلوم الأخرى وخاصَّة الدينيَّة في هذه الفترة ، و لكن اللافت للانتباه أنَّ دراسة النَّحو وتدريسه لا يقتصران على عالم مختص فيه فقط ، بل قد تجد عالما متفوقا في الفقه والتَّفسير ، ومع ذلك يكون بارعا في النَّحو فيتصدَّر لتدريسه و التَّأليف فيه

و بذلك فقد اختط المغاربة لأنفسهم طرائق جديدة تبتعد إلى حدٍّ ما عن غيرها بغض النَّظر عن المؤثرات المشرقيَّة ، حيث لم يعودوا يكتفون بانتظار ما ينتجه نحاة المشرق في هذا الحقل و بشرح مؤلفاتهم فقط ، بل هناك الإنتاج المحلِّي الذي حظي بالعناية عند عامَّة أهل المغرب و غيرهم ، ممَّا يؤكد أنَّ كثيرا من العلماء في هذا القطر" ما كانوا نكرات في البحوث النَّحويَّة ، بل سجَّلوا إضافات نوعيَّة في المشرق و المغرب وكوَّنوا مريدين ، و تركوا سجلات نحويَّة تليق بمقام الآراء النَّحويَّة التي كان لها صدى في المشرق ، إنَّه نبوغ مغربي متميِّز أثرى الفكر العربي و اللغة العربية ، و لم تكن بضاعته رُدَّت إليه كما قيل "[28] .

فقد أصبح للمغاربة إنتاجهم الخاص الذي يعبر عن اختياراتهم و جهودهم التي أثرت الدرس النَّحوي و أغنته ، و قد اعتمد كثير من النُّحاة المغاربة منهج الانتقاء من آراء البصريين و الكوفيين و البغداديين ، ثمَّ الأندلسيين ، حيث تجدهم يرجحون بعض آراء مذهب على مذهب آخر و يعترضون في أخرى ، و العكس يحدث مع مذاهب النَّحو المذكورة ، فإنَّ لهم اختيارات و اجتهادات خاصة جعلتهم يتميزون كما تميَّز غيرهم ، حيث استطاعوا " فرض أنفسهم في النَّحو ؛ لأنَّ اهتمامهم به جعل منهم نحاة من الدرجة الأولى فتمكنوا من فرض آرائهم المختلفة سواءً أكانت آراء اجتهادية خاصة بكل نحوي أو انتقادات لآراء بعض نحاة المشرق ، فأصبح النَّحو بذلك يتميَّز عندهم بخصائص غير التي تميَّز بها عند غيرهم "[29] .

4. نماذج من الآراء النحويّة عند المغاربة: نظرا لما لنُّحاة المغاربة من جهود محمودة وآثارٍ لها قيمتها في اللغة و النَّحو ، و لأنَّه من هؤلاء جميعا تتكوَّن المدرسة المغاربية ، فإنَّنا فيما يأتي نذكر أمثلة من مذهبهم و هي كالآتي :

1ـ من آراء النُّحاة المغاربة منعهم توكيد العائد المنصوب المحذوف قياسا في نحو " جاء الذي ضربت نفسه " . واعتبار الفعل القلبي معلقا عن الجملة المسبوقة بالمعلق بعد المفعول الأوَّل . قال ابن هشام (ت 761هـ) : " قال جماعة من المغاربة : إذا قلت : " علمت زيدا لأبوه قائم " أو " ما أبوه قائم " فالعامل معلق عن الجملة ، و هو عامل في محلِّها النَّصب على أنَّها مفعول ثان ، و خالف في ذلك بعضهم لأنَّ الجملة حكمها في مثل هذا أن تكون في موضع نصب ، و أن لا يؤثر العامل في لفظها ، و إن لم يوجد معلق و ذلك نحو " علمت زيدا أبوه قائم "[30] . و تجويزهم تأخير " حال " الفاضل عن اسم التفضيل قال السيوطي(ت 911هـ) : "و أجاز بعض المغاربة تأخير الحالين عن " أفعل " بشرط أن يليه الحال الأولى مفصولة عنه من الثانية فيقال :" هذا أطيب بسرا منه رطبا " و " زيد أشجع أعزل من عمرو ذا سلاح " . قال أبو حيان : و هذا حسن في القياس لكنه يحتاج إلى سماع "[31].

2 ـ تمييز المقدار ، إذا كان المقدار مخلَّطا من جنسين ، يذهب الفراء (ت 207هـ) أنَّه لا يجوز عطف أحدهما على الآخر، بل تقول عندي رطلٌ سمنا عسلا ، إذا أردت أن عندك من السمن و العسل مقدار رطل [32] ، لأنَّ تفسيره الرطل ليس للسمن وحده و لا للعسل وحده ، و إنَّما تفسير الرطل أي تمييزه مجموعهما ، فجُعِل " سمنا عسلا " اسما

واحدا للمجموع على حدِّ قولهم : هذا " حلوٌ حامضٌ " ، و ذهب غيره من النُّحاة الكوفيين و البصريين إلى وجوب العطف بالواو ، لأنَّ الواو الجامعة تُصيِّر ما قبلها و ما بعدها بمنزلة شيء واحد ، وقال بعض المغاربة الأمران سائغان العطف و تركه [33].

3 ـ تعدد الخبر لمبتدأ واحد ، فقد اختُلف في جواز تعدد الخبر لمبتدأ واحد على أقوال أحدها : و هو الأصحُّ و عليه جمهور النُّحاة ، الجواز ، كما يجوز في النعوت لمنعوت واحد باتفاق النُّحاة ، سواء اقترن الخبر المتعدد بعاطفٍ فكان كل واحد خبرا في المعنى كقولك : زيدٌ فقيهٌ و شاعرٌ و كاتبٌ ، فالواو العاطفة تُصيِّر ما قبلها و ما بعدها بمنزلة شيء واحد ، أولم يقترن الخبر المتعدد بعاطف فكان كل واحد خبرا مستقلا مباشرا . و الثاني : المنع واختاره ابن عصفور الأندلسي و كثير من المغاربة ، و الثالث : جواز تعدد الخبر إن اتَّحد الخبران المتعددان ، أو اتَّحدت الأخبار المتعدِّدة في الإفراد أو الجملة ، فالأول كالمثال الأوَّل، و الثاني نحو : زيدٌ أبوه قائمٌ أخوه خارجٌ ، و منع تعدُّد الخبر إن كان أحدهما مفردا و الآخر جملة . الرَّابع : قصر جواز تعدُّد الخبر لفظا على ما كان المعنى فيه واحدا نحو : الرُّمان حلوٌ حامضٌ ، أي مزٌ ، وزيدٌ أعسرُ أيسرُ ، أي أضبط ، و هو الذي يعمل بكلتا يديه ، و هذا النَّوع يجب فيه عند أهل المذهب الرابع ترك العطف ، و تعد " حلوٌ حامضٌ " و " أعسر أيسر " كلمة واحدة تعرب خبرا لأنَّ معناها واحد ، و جوز أبو علي الفارسي النَّحوي البغدادي استعمال هذا النَّوع بالعطف كغيره من الأخبار المفردة فأجاز : الرُّمان حلوٌ و حامضٌ ، وزيدٌ أعسرُ و أيسرُ[34]

4 ـ جزم المضارع في جواب الأمر ، إذ يجوز في المضارع الجزم بعد الأمر الصريح أو المدلول عليه بخبر ، نحو قولنا : اتقى اللَّه امرؤ فعل الخير يثب عليه ، أي ليتَّق ، أو اسم فعل نحو : حسبك الحديث ينم الناس . لأنَّ معناه اكتف ينم الناس ، و نزال أكرمك ، و عليك زيدا يحسن إليك

قال أبو حيان : و قال بعض أصحابنا (المغاربة) الفعل الخبري لفظا الأمري معنى لا ينقاس ، و إنَّما هو موقوف على السماع ، و المسموع اتقى الله امرؤ فعل خيرا يثب عليه [35].

5 ـ تمييز " كم " الاستفهامية : مميز " كم " الاستفهامية مفرد منصوب كمميِّز عشرين وأخواته . و أجاز الكوفيون كونه جمعا مطلقا ، كما يجوز ذلك في " كم " الخبرية ، نحو :

كم غلمانا لك ، ورد بأنَّه لم يسمع ، و أجازه الأخفش إذا أردت بالجمع أصنافا من الغلمان ، تريدكم عندك من هذه الأصناف .

واختاره بعض المغاربة فقال : كم الاستفهامية لا تفسَّرُ بالجمع ، إنَّما هو بشرط أن يكون السؤال بها عن عدد الأشخاص ، و أمَّا إن كان السؤال عن الجماعات فيسوغ تمييزها بالجمع ، لأنَّه إذ ذاك بمنزلة المفرد ، و ذلك نحو : كم رجالا عندك ؟ تريدكم جمعا من الرجال ، إذ أردت أن تسأل عن عدد أصناف القوم الذين عنده ، لا عن مبلغ أشخاصهم ، و يسوغ باسم الجنس نحو : كم بطا عندك . تريد كم صنفا من البط عندك[36] .

6 ـ إنَّ النافية ، أجاز إعمالها عمل " ليس " الكسائي و أكثر الكوفيين ، و المبرد البصري ، وابن السراج و الفارسي و ابن جني البغداديون ، و منع إعمالها أكثر البصريين و منهم سيبويه ، و الفراء الكوفي ، و أكثر المغاربة[37] .

7 ـ اعتبار نصب " غير" في الاستثناء كنصب المستثنى بـ " إلا " قال ابن هشام : " وانتصاب " غير " في الاستثناء عن تمام الكلام عند المغاربة كانتصاب الاسم بعد " إلا " عندهم "[38] .

8 ـ تصحيحهم عمل " أن " المخففة المفتوحة في الظاهر أيضا . قال السيوي : " الثاني : تعمل في المضمر و في الظاهر نحو: " علمت أنَّ زيدا قائمٌ " و قُرئ " أن غَضَبَ اللهِ عليها " و عليه طائفة من المغاربة [39] .

5 ـ خصائص الدرس النحوي عند المغاربة : انتشر النَّحو العربي بمختلف مذاهبه الشرقية في المغرب العربي ، و بلغ قمة تطوره و ازدهاره ،" فقد ظهر عند المغاربة نحويون عظام كان لهم بالغ الأثر في خدمة علم النَّحو و المهتمين به ، واستطاع كثيرون منهم أن يتصدَّروا بجدارة لمهمة تدريس هذا العلم في العديد من مدارس بلاد الشَّام ومساجدها و زواياه ، و عبَّروا في الكثير من الأوقات عن براعتهم و أهليتهم الكاملة في التَّصدي لهذه المهمَّة النَّبيلة ، ممَّا أضفى على بعضهم سمة الخلود و البقاء ، و ذلك من خلال المؤلفات التي خلَّفوها "[40]، فأصبح النَّحو بذلك عند المغاربة يتميَّز بعدة خصائص لعل من أبرزها ما يلي :

1 ـ الميل إلى التيسير و الاختصار و تذليل الصعب من مباحث النَّحو : حين وصل النَّحو إلى المغرب بدأ ، الأمر الذي العلماء المغاربة يشتغلون بهذا العلم ووجدوا أنَّ أكثر

الكتب النَّحويَّة التي درسوها تتَّسم بالتَّعقيد و كثرة التَّأويلات جعلهم يبحثون عن طرائق جديدة لتبسيط و تيسير هذا العلم بغية تقريبه إلى الأذهان . و تجدر الإشارة أنَّ فكرة التيسير لم تكن خاصة بالمغاربة فقط ، و إنَّما هي وليدة القرون الأولى من نشأة النَّحو ، فقد سأل الجاحظ (ت 255هـ) يوما الأخفش الأوَّل ـ و كان قد ألف الصعوبة في مؤلفاته ـ " أنت أعلم النَّاس بالنَّحو فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلَّها ؟ و ما بالنا نفهم بعضها ، و لا نفهم أكثرها ؟ و ما بالك تقدم بعض العويص، و تؤخر بعض المفهوم ؟ فأجابه : أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله ، و ليست هي من كتب الدين ، و لو وضعتها هذا الوضع المفهوم ، لتدعوهم حلاوة ما فهموا ، إلى التماس فهم ما لم يفهموا ، و إنمَّا قد كسبت في هذه التَّدبير ، إذ كنت إلى التَّكسُّب ذهبت " [41].

فعلى الرغم من اكتمال النَّحو و نضوجه إلاَّ أنَّه " مع ذلك لا يخلو من تعقيدات جمَّة تشكل عقبات أمام الطلاب والدارسين، وقد لازمت هذه الصعوبات تدريس النَّحو في العقود الأولى ، فكان يقال لمن أراد قراءة كتاب سيبويه هل ركبت البحر ؟ كناية عمَّا تحتاج إليه هذه الدّراسة من جهد و مشقة و لذلك تتابعت مؤلفات كثيرة استهدفت الإيضاح و الاختصار"[42].

و فيما يخص اهتمام النحاة المغاربة بالدعوة إلى التيسير فقد رأوا أنَّ الحاجة أصبحت ملحة للدارسين إلى حفظ القواعد ، ممَّا دفعهم إلى وضع الشروح والمختصرات التي ترنوا إلى تبسيط طرائق تعلُّم النَّحو و تعليمه ، فقد كان من مميِّزات التعليم في المغرب " الجنوح إلى التبسيط ، و لذلك عوامل متعدِّدة أبرزها إدراك العلماء لوظيفة النَّحو الأساسية المتمثلة في تصحيح استعمال العربية نطقا و قراءة و كتابة ، و هذا لا يتحقق بالأمالي المطوَّلة و المؤلفات الضخمة التي تنوء بحملها الأذهان المبتدئة، بل يكفي اليسير منها ، ممَّا يسهل حفظه و تمثله "[43] .

و من المحاولات المهمة في هذا النوع من التَّأليف التي كانت من صنيع المغاربة (المقدمة الجزولية) ، و التي " جاءت موجزة غاية الإيجاز و مشتملة على كثير من قواعد النَّحو العربي ، خالية في الغالب من الأمثلة الموضِّحة لقواعدها "[44] ، و استطاع صاحبها أن يتناول العديد من القضايا النحوية بدقة و تركيز تنم على تمكنه ، ممَّا جعل لها مقاما خاصا بين كتب النَّحو ، على الرغم من شدَّة اختصارها التي دفعت الكثير من العلماء إلى العمل إلى شرحها و توضيحها ، و حتى الجزولي نفسه قام بشرحها أكثر من

مرَّة ؛ و ذلك لإدراكه لمدى صعوبتها على الناشئة ، و قد كانت الجزولية من أروع ما أُلِّف في زمان صاحبها، و لعلَّ " من مظاهر الإبداع فيها ابتكار أسلوب الاختصار الفنِّي، وبالرغم ممَّا يتعرض له هذا الأسلوب من النَّقد ، فقد يكون من قبيل المكابرة ما لم من فضل في مساعدة الحُفَّاظ على الاستحضار، وفي دفع الباحثين إلى التَّطلع و الشرح " [45].

و كانت(الآجرومية) أيضا من أهمِّ المختصرات التي عرفها التُّراث النَّحوي في المغرب فقد أُلِّفت بأسلوب شيِّق و بسيط ، بعيد عن التَّعقيد الذي يقتضي الاختصار وهو ما أدى بصاحبها أن يكتفي بذكر قواعد النَّحو الأساسية دون الإطالة في عرضها و شرحها ، وقد اكتفى بعرض المواد النَّحويَّة دون أن يذكر الآراء التي قيلت حولها ، و بذلك فقد امتازت (الآجروميَّة) في جميعها ببساطة العبارة ووضوح الألفاظ ، مع الابتعاد قدر الإمكان الخوض في الآراء المتباينة .

كما اتَّبع المغاربة طريقة أخرى في التيسير و هي شرح الكتب المطوَّلة و المختصرات التي وضعها نحاة المشرق و الأندلس و حتى المغاربة أنفسهم ، و كانت بدايتهم بالكتب المشرقية التي انشغلوا بشرحها والتعليق عليها ، و قد كان لهذه الطريقة أثرها الواضح في تنمية النَّحو العربي عامَّة و المغاربي خاصَّة ، و عرف هذا النَّوع من التَّأليف انتشارا واسعا في بلاد المغرب ، واكتست المختصرات أهميَّة بالغة بين هؤلاء الدارسين فرغبوا في قراءتها و حفظها لسهولتها و بساطة متنها ، على عكس الكتب المطوَّلة التي وجدوا صعوبة في فهمها .

2 ـ غلبة الطابع التعليمي على نحوهم : يهتم هذا النوع من النَّحو بعرض المسائل العامَّة ، دون الدُّخول في الجزئيات التي تزيد من تعقيده ، و لأهمية هذا النَّوع من النَّحو اهتم النحاة المغاربة بالتَّأليف فيه ، فظهرت مؤلفات تعليميَّة مهمة اتسمت بالطابع التعليمي وجد فيه العلماء و المتعلمون فيها ضالتهم ، مثل(الجزولية) و(ألفية ابن معطٍ)و(الآجرومية).

وهناك شرح المكودي على متن الآجرومية الذي يعدُّ شرحٌ بسيط مشتمل على القواعد التي حوتها (الآجرومية) " و هي إن كانت سهلة المأخذ و العبارة واضحة المثل و الإشارة تحتاج إلى التَّنبيه على مقفلها و تنقيح إشاراتها و مثلها فوضعنا عليها شرحا صغير الجرم كثير العلم لا يملُّه الناظر و لا يذمُّه المناظر " [46].و قد تناول المكودي القواعد النَّحويَّة والصرفيَّة بأسلوبٍ سهلٍ موجزٍ يناسب المتعلمين ، ممَّا دفعه إلى الاستعانة بكثير من

الأمثلة و الشواهد عند شرحه للألفية و توضيحها " فشرح المكودي مع خلُوِّه من الإطناب المملِّ ، و تجافيه عن الاختصار المخل ، امتاز بحسن التَّرتيب ، و بديع التَّصريف وصنعة التَّعليم ، جمع فيه بين كشف قناع المتن و إعرابه فهو للمتعلِّم هداية يستفيد به من شَرَعَ في طلب علم النَّحو و الصَّرف طالعه و شرب منه حتى يرتوى "[47].

و بهذا كان للمغاربة نصيب في تنمية النَّحو التعليمي بعدما أسس له المشارقة منذ القرون الأولى من نشأة النحو و ذلك من خلال ما ألفه النحاة المغاربة من كتب تعليمية هادفة .

3 ـ ارتباط تعلمه بمسألة الكرامات : كثيرا ما كانت الكرامات و الرُؤى طريقا إلى أن يرتبط العالم بالنَّحو و يبرع فيه ، فهذا أبو راس الناصري قصَّ عليه أحد تلامذته رؤيا ملخصها أنَّه رآه يدرس الطلبة من الألفية ، و كانت هذه بداية تعلقه بالنَّحو ، و ذكر ذلك بقوله :" لا شك أنَّ الله يلهمني النَّحو بلا قراءة "[48] .

و مثل هذه الكرامات هي ما بعث الفكون القسنطيني على علم النَّحو ، فقد أذن له جدُّه ـ كما يقول ـ في منام ، إذ رآه يناوله ورقة مكتوبا عليها بخط أصفر : كان فعل ماض أو ما معناه ، و لمَّا استيقظ أدرك أنَّ ذلك إذْنٌ له من جدِّه بالاشتغال بهذا العلم ، يوضح ذلك قائلا : " فاشتغلت به فحصلت لي ملكة و الحمد لله و ذلك من بركته "[49] .

4ـ المناظرات النَّحوية : من الخصائص التي تميِّز نحو المغاربة المناظرات التي لعبت دورا مهما في نضجه و ارتقائه و قد كانت تلك المناظرات تدور إمَّا بين الطلبة و معلميهم ، وإمَّا بين النُّحاة و نظرائهم في مختلف الأمصار . و كان نحاة المغرب ممَّن اشتهروا في التَّناظرو مناقشة الآراء النَّحويَّة " المراسلات و المناظرات النَّحويَّة التي يتردد صيتها في كتب التراجم و الطبقات منبئة باهتمام المغاربة المنقطع النظير بالدِّراسات النَّحويَّة "[50]. و غالبا ما تدفعهم المناظرات إلى التأليف في النَّحو العربي ،و منها المناظرة التي جرت بين ابن هانئ اللَّخمي و الخِدب حول المسائل المتعلِّقة بكتاب سيبويه .

ممَّا سبق نستخلص جملة من النتائج و هي كالتَّالي :

1 ـ لم يتخلف النحاة المغاربة في المشاركة الفعالة في النشاط النحوي منذ وصول هذه الصناعة إلى بلادهم .

2 ـ لم يتردد المغاربة في المشاركة بآرائهم النحوية ، التي خالفوا فيها كبار النحاة ، دونما شعور بنقص ، فكانت آراؤهم أكثر دقة و أقرب ما يكون إلى روح اللغة في كثير من الأحيان .

3 ـ ابتكار النحاة المغاربة ، طريقة المتون النحوية سواء النثرية أو الشعرية ، و جعلها وسيلة مثلى لتعليم النحو ، و تقديمه في أبسط صورة ، فكانت الجزولية و الآجرومية خير شاهد على ابتكارهم هذا .

4 ـ غلبة الطابع التعليمي على أكثر المؤلفات المغاربية ، و كان ذلك من أجل تسهيل القواعد على الناشئة و المتعلمين .

5 ـ لقد أمكننا ما وجدنا عليه الدرس النَّحوي عند المغاربة ، من الشمول و الإحاطة و التَّأصيل ، و اتخاذ الأدوات ، أن نجزم بوجود مدرسة نحويَّة متميّزة ، ظاهرة على ما سواها ، مؤثِّرة فيما بعدها .

الهوامش و الإحالات :

(1) ـ أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، مكتبة النهضة المصريَّة ، القاهرة ، ط7، (د ت) ، ج2، ص 294.

(2) ـ سعيد الأفغاني ، من تاريخ النَّحو ، دار الفكر ، (د ط) ، (د ت) ، ص 93 .

(3) ـ أبو الطيب اللغوي (عبد الواحد بن علي الحلبي) ، مراتب النحويين ،حققه و علَّق عليه : محمد أبو الفضل إبراهيم ،مكتبة نهضة مصر و مطبعتها ، الفجالة ، القاهرة ، (د . ط) ، (د. ت) ، ص 120 .

(4) ـ الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسي) ، طبقات النحويين و اللغويين ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ن القاهرة ، مصر ، ط2 ، (د. ت) ، ص311. و ينظر: القفطي (الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف)، إنباه الرواة على أنباء النحاة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، القاهرة بيروت ، ط1 ، 1406هـ / 1986م ، ج3 ، ص 230.

[5] ـ المقري (الشيخ أحمد بن محمد التلمساني) ، نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب ، حققه : إحسان عباس ، دار صادر، بيروت ، (د. ط) ، (د . ت) ، ج1 ، 107.

[6] ـ ينظر :صلاح رواي ، النَّحو العربي ، نشأته ، تطوره ، مدارسه ، رجاله ، دار غريب للنشر و التوزيع ، القاهرة ، (د . ط)، 2003م ، ص 676.

[7] ـ ينظر : شوقي ضيف ، المدارس النَّحويَّة ، دار المعارف ، القاهرة ط7 ، (د . ت) ، ص162 .

[8] ـ السيوطي (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن ت 911هـ) ، بغية الوعاة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر ، ط2 ، 1399هـ/ 1979م ، ج1 ، ص 35.

[9] ينظر :صلاح رواي ، النَّحو العربي ، نشأته ، تطوره ، مدارسه ، رجاله ،ص 677، 678.

[10] ـ كريم حسين الخالدي ، أصالة النَّحو العربي ،دار صفاء للنشر و التوزيع ، عمَّان ، ط1 ، 2005م ، 69. 70 .

[11] ـ محمد المختار ولد أباه ، تاريخ النحو العربي في المشرق و المغرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط2، 1429هـ / 2008م ، ص 19.

[12] ـ ينظر: عبد الهادي الفضلي، مراكز الدراسات النحوية، مكتبة المنار، الأردن، ط 1، 1986 م ، ص 55.

[13] ـ محمد الطنطاوي ، نشأة النَّحو و تاريخ أشهر النُّحاة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، (د . ت) ، ص 171

[14] ـ الزبيدي ، طبقات النحويين و اللغويين ، ص 273.

[15] ـ شعبان عوض محمد العبيدي ، النَّحو العربي و مناهج التأليف و التَّحليل ، منشورات جامعة قاريونس ، (د .ط) ، 1989م ، ص 182.

[16] ـ المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

[17] ـ شوقي ضيف ، المدارس النَّحويَّة ،ص 245.

[18] ـ المرجع نفسه ، ص292.

[19] ـ ينظر: حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، منشورات مكتبة المنار، تونس ، ط1 ، 1972م ، القسم 1 ، ص 162.

[20] ـ أحمد بلشهاب ، تطور الدِّراسات النَّحوية في المغرب حتى القرن الثامن الهجري ، ، مقال في زهرة الآس في فضائل العباس، دار المناهل ، الرِّباط ، 1977م ، ج2 ، ص 469.

[21] ـ المرجع نفسه ، ص 470.

[22] ـ عبد العزيز بن هنية ، المدرسة المغربية في النَّحو العربي ، متن الآجرومية عينة ، رسالة ماجستير(مخطوطة) ، إشراف : الدكتور عبد المجيد عيساني ، جامعة قاصدي مرباح ، ورقلة ، الجزائر ، 2009م ، ص 47.

[23] ـ ينظر : يوسف بن أحمد حوالة ، الحياة العلمية في إفريقية ،المغرب الأدنى منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري ، سلسلة بحوث الدِّراسات الإسلامية ، مكة المكرمة ، ط1، 1421هـ / 2000م ، ج2 ، ص324.

[24] ـ ينظر: حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، القسم 1 ، ص 172.

[25] ـ ينظر : الزبيدي ، طبقات النحويين و اللغويين ، ص 245 ، 246.

[26] ـ المرجع نفسه ، ص 247 .

[27] ـ المرجع نفسه ، ص 147.

[28] ـ صالح بلعيد ، في أصول النَّحو ، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر ، (د . ط) ، 2005 م ، ص 167.

[29] ـ حفيظة يحياوي ، إسهامات نحاة المغرب و الأندلس في تأصيل الدَّرس النَّحوي العربي خلال القرنين السادس و السابع الهجريين ، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر بتيزي وزو ، الجزائر ، (د . ط) ، 2011م ، ص 154.

[30] ـ ابن هشام (جمال الدين الأنصاري) ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق : مازن المبارك ، و محمد علي حمد الله، مراجعة : سعيد الأفغاني ، دمشق ، ط1 ، 1384هـ / 1964م ، ج2 ، ص 466.

[31] ـ السيوطي (جلال الدين) ، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، تحقيق و شرح : عبد العالم سالم مكرّم ، دار البحوث العلمية للنشر و التوزيع ، الكويت ، (د ط) ، 1399هـ / 1979م ، ج 4 ، ص 30.

[32] ـ يقال رَطْل و رِطْلْ بفتح الراء و كسرها مع سكون الطاء ، و الجمع أرطال ، و هي آرامية ، و هي من الأوزان .

[33] ـ المرجع السابق ، ج1 ، ص 250. 251.

[34] ـ المرجع نفسه ، ج1 ، ص 108.

[35] ـ عبد الحميد حسن ، القواعد النَّحوية مادتها و طريقتها ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر ، ط2 ، 1952م، ص122.

[36] ـ السيوطي ، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، ج1 ، ص 254.

[37] ـ ينظر : ابن عقيل ، شرح الألفية ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط7 ، 1953م، ج1 ، ص 272.

[38] ـ ابن هشام ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ج1 ، ص 171 .

[39] ـ السيوطي ، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، ج2 ، ص 184.

[40] ـ علي أحمد ، بلاد الشام في نظر المغاربة و الأندلسيين منذ بداية القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع الهجري ، مجلة التاريخ العربي ،الرِّباط ، 2000م ، ع15 ، ص11.

[41] ـ الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) ، الحيوان ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط3، 1969م ، ج1 ، ص 92.91.

[42] ـ ابن الأنباري (أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد) ، نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، قام بتحقيقه : الدكتور إبراهيم السامرائي ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن ، ط3 ، 1405هـ / 1985م ، ص55.

[43] ـ نعمان بوقرة ، قراءات تمهيدية في تيسير تعليم النَّحو عند المغاربة و الأندلسيين ابن حزم و ابن آجروم و المحاضر الشنقيطية أنموذجا ، أعمال ندوة تيسير النحو ، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية ، الجزائر ، 2001م ، ص164.

[44] ـ عبد القادر رحيم الهيتي ، خصائص مذهب الأندلس النَّحوي خلال القرن السابع الهجري ، منشورات جامعة قريونس ، بنغازي ، ط2 ، 1993م، ص 206.

[45] ـ محمد المختار ولد أباه ، تاريخ النحو العربي في المشرق و المغرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط2، 1429هـ / 2008م ، ص 270.

[46] ـ المكودي (أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح) ، شرح المكودي على المقدمة الآجرومية في علم العربية ، و بهامشه رسالتان لأحمد زيني دحلان ،مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده ، مصر ، ط2 ، 1936م ، ص 2.

[47] ـالمكودي ، شرح المكودي على الألفية في علمي الصرف و النَّحو ، تحقيق : عبد الحميد الهنداوي ، المكتبة العصرية ، صيدا، بيروت ، (د . ط) ، 1425هـ / 2005م ،ج1 ، ص 57

[48] ـ أبو راس الناصري ، فتح الإله ، تحقيق : محمد بن عبد الكريم ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،(د. ط) ، 1990م ، ص 23 .

[49] ـ سعد الله ، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1980 م ، ص 25 .

[50] ـ ميلود التوري ، الحركة اللُّغوية بالمغرب الأقصى (عصر المرابطين الموحدين) ، بحث دبلوم الدِّراسات العليا في اللسانيات ، جامعة محمد الخامس، الرِّباط ، 1992 م/ 1993م ص 224.